نحو منهج نقدى لأدب الأطفال.. إطار عام

د. محمود الضبع

إذا كان الأدب عموما هو كل نشاط لغوى رفيع، ورؤية إبداعية تصويرية، وصياغة للغة على نحو مفارق للاستخدام العادى واليومى، وإذا كانت للأدب - عموما - تقنيات وأدوات تتحدد تبعا للنوع الأدبى (رواية - مسرحية - قصة - شعر)، فإن أدب الأطفال لا يختلف كثيرا عن هذا المفهوم ولا هذه التقنيات، اللهم إلا فى العناية بأساليب العرض وطرق التقديم، والالتزام بكثير مما يمكن لأدب الكبار أن يتجاوزه أو يتخلى عنه.

وإذا كان أدب الكبار قد حظى عبر التاريخ بالعناية والاهتمام على مستوى الاحتفاء بنصوصه، والاهتمام به تارة من المنظور البلاغى، وأخرى من المنظور اللغوى، وثالثة على المستوى النقدى، ومن ثم تعددت المدارس والاتجاهات النقدية التى تنظر إلى النص بالتركيز على المبدع وأثره على النص (الاتجاهات التاريخية والنفسية.... إلخ)، أو بالتركيز على النص بفصله عن المبدع (الشكلانية والبنوية والأسلوبية والتفكيكية....)، أو بنقل مجال التركيز إلى المتلقى (التلقى والاستقبال)، أو بالنظر إلى العناصر الثلاث مجتمعة (المرسل - النص - المستقبل)، وما أنتجه من نقد حضارى ونقد ثقافى.

فإذا كان أدب الكبار قد حظى بذلك جميعه، ولم يزل بعد التطور مستمرا، فإن أدب الأطفال لم يكن له حظ من النقد والتحليل على هذا المستوى، إذ لم تتجاوز الدراسات التى تناولته حد تحليل وبحث الجانب القيمى والمعرفى فيه، أو إصدار الحكم بالمناسبة وعدم المناسبة احتكاما إلى جملة معايير أنتجتها ثقافة المجتمع وتوارثتها الأجيال، ولم يتناوله النقد العربى فى إطار رؤية كلية تشمل النص لتحلله تحليلا شموليا على أكثر من مستوى وصولا إلى استكشاف جماليات هذا النوع من الكتابة والإسهام فى تطويره بشكل عام.

وللوقوف على ملامح نقدية ما يمكن اعتمادها مدخلا فى أدب الأطفال، فإنه ينبغى أولا تحديد السمات العامة لهذا الأدب على اختلاف أنواعه جميعا سواء فيما يتعلق بالشكل وأساليب العرض، أو فيما يتعلق بالمضمون والمحتوى والقضايا والموضوعات التى يتناولها، أو على نحو آخر الإجابة على أسئلة مثل:

ماذا يقبل النقد والتحليل فى أدب الأطفال؟ هل الشكل أم الموضوع، أم اللغة، أم الخطاب، أم البناء المعرفى، أم النسق القيمى، أم العناصر الفنية للنوع الأدبى (شعر - قصة - رواية - مسرحية) فى تحققها من عدمه، أم عناصر أخرى؟

ما المداخل النقدية التى يمكن اعتمادها لذلك؟ هل تتم استعارة المداخل النقدية من أدب الكبار على تعددها واختلاف توجهاتها، أم يتم تجاهلها كلية مع عدم تجاهل تراكمها المعرفى، ومن ثم العمل على صياغة مداخل جديدة تلائم أدب الأطفال؟

ما مدى ارتباط أدب الأطفال بالتطور الفنى للأشكال الأدبية فى الأدب العربى عموماً، ومن ثم إمكانيات التطور فى المداخل النقدية التى يمكن إتباعها؟

إنه من الجلى أن أدب الأطفال يعمل فى سياق يختلف نسبيا وفى كثير من الجوانب عن السياقات التى يعمل فيها أدب الكبار، وتكفى فقط الإشارة إلى إمكانات التجريب التى يمتلكها أدب الكبار، وهو تجريب لا يفتؤ ينتهى ليبدأ من جديد فى اللغة والدلالة والرمز وأساليب البناء والموضوع والشكل، وهو ما يؤكده تطور الأنواع الأدبية عبر نصف قرن من الزمان مثلا، فى الرواية وما لحقها من تطورات منذ رواية الخمسينيات من القرن الماضى على يد نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعى واهتمامها بالأشخاص (انطلاقا من كون الإنسان هو مركز الكون)، وحتى الرواية الجديدة فى اهتمامها بالأشياء (انطلاقا من كون الإنسان أحد عناصر الكون وليس مركزه)، وفى الشعر وما طرأ عليه من تحولات من العمودية إلى التفعيلية إلى قصيدة النثر، إلى الكتابة النصية.. فهذه التحولات تشير إلى كم التجريب وحركته فى أدب الكبار، وهو تجريب يدين فى جانب كبير منه لحركة الجدل الدائرة بين الإبداع والنقد، ورغبة الإبداع دوما فى أن يتجاوز الحدود والأسس والقواعد والاتفاقات الجمالية التى يكشف عنها النقد.

أما أدب الأطفال فنظرا لغياب الاهتمام النقدى به تماما، فإن الكشف عن ملامحه تقتضى - رصد أكثر من جانب للوقوف على تجلياته وتطوراته،

وسبر أغوار جمالياته، ومن هذه الملامح التى يمكن التعامل معها نقديا، والتى ستمثل فى إجمالها الإطار النقدى الذى يمكن الانطلاق منه فى دراسة وتحليل أدب الأطفال على اختلاف أنواعه:

- الأسس الفنية للنوع الأدبى عموما ومستوى كتابته للأطفال على نحو خاص.
- علاقة هذا الأدب بالمراحل العمرية للطفل.
- جماليات الأداء المتعلقة بأدب الأطفال على اختلاف أجناسه.

ما سبق يمكن اعتماده مدخلا لتحليل أدب الأطفال على مستويين، الأول فيهما تفكيكى تقييمى يعمل على تحليل العناصر بهدف تكوين رؤية عامة عن مدى التزامها بالمعايير والأسس الفنية، والثانى جمالى يسعى لتقديم رؤية جمالية عن المنجز النصى ذاته.

أولا الأسس الفنية للنوع الأدبى ومستوى كتابته للأطفال:

من المتعارف عليه أن لكل نوع أدبى - قصة رواية شعر مسرح - أسسه الفنية التى تمثل جوهر النوع، وحتى مع التجريب على مستوى تغييب بعض العناصر أو الإعلاء من شأن بعضها على حساب الآخر فهو فى نهايته تجريب لا يمكن أن يصل يوما إلى تغييبها كليا، وإلا انتفى النوع كلية أيضا.

فالأسس الفنية للرواية مثلا تتكون من عدة عناصر هى اللغة، والوصف، والحوار، والشخصية / الشخصيات، والحدث، والبناء الزمنى باتباع نسق ما، والحبكة الدرامية، إضافة إلى الاتساق والتشويق وما إلى ذلك من عناصر جمالية، وحتى مع التجريب فى تكثيف أو تهشيم أو تطوير كل

للوقوف على ملامح نقدية ما يمكن اعتمادها مدخلا فى أدب الأطفال، فإنه ينبغى أولا تحديد السمات العامة لهذا الأدب على اختلاف أنواعه

عنصر - من هذه العناصر عبر تطور الرواية، إلا أنه لا يمكن الاستغناء عنه، فمثلا لا يمكن تصور رواية بدون لغة وبدون شخصية، وبدون حدث يتخذ مسارا ما... إلخ، ذلك أن هذه العناصر مجتمعة تمثل الأسس الفنية للرواية، وكذلك الأمر فى الشعر، وفى المسرح، وفى القصة القصيرة، إذ لكل نوع منها عناصره المكونة وأسسه الفنية التى يتم التحرك فى إطارها، والتجريب والتطوير أيضا فى إطارها.

ومن هنا يمكن رصد العناصر الأساسية المشتركة للأنواع الأدبية عموما، والواجب تحققها فى أدب الأطفال، والقابلة لدراستها نقديا، وذلك على مستويين: الشكلى، والمضمونى، على النحو التالى:

(أ) دراسة الشكل والمضمون:

على مستوى الشكل (الأسلوب):

- اللغة: حيث يميل أدب الطفل إلى استخدام معجم لغوى بعينه، تحدده المرحلة العمرية والمستوى الثقافى الكائن أو المرغوب الوصول إليه، فمثلا المفردات اللغوية التى تعبر عن صور حسية تكون أقرب إلى أذهان أطفال ما قبل الثانية، فى حين يستطيع أطفال ما بعد الثانية استيعاب

المعانى المجردة التى ليست لها صورة حسية، كذلك الأمر بالنسبة لمنتج اللغة، فأطفال ما قبل الثانية يحبون الحيوانات والطيور والأشياء الناطقة بلغة البشر، فى حين يميل أطفال ما بعد الرابعة إلى الشخصيات البشرية الناطقة بلغتهم هم(١).

– الإيقاع: وهو عنصر متحقق فى النثر والشعر على السواء(٢)، ففى الشعر يجب أن تميل كتابة الأطفال إلى استخدام الإيقاعات الخفيفة والسهلة، والأبحر الشعرية أحادية التفعيلة وفى صورتها المجزرءة أو المنهوكة، والميل إلى تنويع الأوزان والقوافى عبر مقاطع شعرية، فى حين يكتسب النثر إيقاعه من استخدام الجمل القصيرة، والأبنية والتراكيب اللغوية المتوازنة كميا (سواء باستخدام السجع، أو الطباق أو المقابلة).

– بناء الصورة: إذ يجب أن تكون الصورة فى أدب الأطفال قريبة المأخذ، سهلة التواصل معها، لا تحتمل تأويلات، وإنما تصل مباشرة إلى الهدف المطلوب، ومن دون إعمال جهد كبير فى تفهم دلالاتها، وحتى الحكايات التى كانت تحكى عن الغول والكائنات الخرافية، فإنها كانت تسعى إلى رسم صورة متخيلة تقترب من أذهان الأطفال، وكذلك يجب أن يكون الأمر بالنسبة للصور البلاغية التى يجب أن تعتمد على التشبيهات المفصلة بوصفها الأقرب إلى وعى المتلقى الطفل، ويمكن إجمالا فى هذا الصدد دراسة التخييل بمنجزه العربى بوصفه انفعالية توليد الصورة، وباعتباره الأداة الإجرائية لرصد مستويات تخلق العملية الشعرية – خصوصا – ومظاهر تأثيرها فى المتلقى وتحريكها لانفعالاته وقواه النزوعية.

– طريقة العرض: فالأطفال يتأثرون كثيرا بطريقة العرض التى يتم تقديم الأدب من خلالها، فمثلا الطرق البصرية أكثر تشويقا من الطرق القرائية، مثل القصة المصورة والمجسمة، وهكذا، كما أن الأطفال يتأثرون بالوسيط أيضا، وهناك مواصفات عامة وشروط عدة تسجلها الدراسات المهتمة حول الوسيط، فمثلا إذا كان كتابا، يشترط فيه المتانة، والقدرة على التحمل، والشكل الجذاب، والألوان الزاهية، وحجم الطباعة المناسبة للمرحلة السنية، وحجم الصور ومساحاتها وطبيعتها، وغير ذلك.

على مستوى المضمون:

– الموضوع: ليست كل الموضوعات صالحة لأن تعالج أو تقدم للأطفال، وعند معالجتها يجب مراعاة المرحلة السنية، والمعجم اللغوى، والقدرات العقلية، وإمكانات الاستيعاب، وألفة الموضوع نفسه، غير أنه لا يمكن حصر الموضوعات التى فى الإمكان تقديمها للأطفال فى شكل أدب، والمتحكم الوحيدفى اختيار الموضوع هو نمط الثقافة السائد، ونمط القيم والتقاليد، وإن كانت جميعها متشابهة عبر العالم، فمثلا موضوعات مثل الجنس والسياسة لا يتم تقديمها للأطفال، على النقيض من موضوعات القيم والتقاليد والعلوم المختلفة، فهى من الموضوعات التى تكثر معالجتها على الإطلاق.

– المعارف: وهى فى مجملها يجب أن تنطلق من معارف الطفل لتتدرج به إلى المعارف المراد إكسابها، وهنا تكمن إشكالية الاختيار بين الانطلاق من ثقافة الطفل، أم الانطلاق من ثقافة الكبار، وبالعودة إلى نظرية الذكاءات المتعددة، وما

نتج عنها من نظريات فى التربية،و فإن أفضل المداخل لتأليف أو حكاية قصة للأطفال هو البدء من ثقافتهم واهتماماتهم وميولهم، ومن ثم التدرج بها إلى الأمام، انطلاقا من مبدأ التعلم المعاصر «علمنى ما أريد لا تعلمنى ما تريده أنت» أى ابدأ من خبراتى ورغباتى وميولى لتصل بى إلى تعليم ما يمكن تعلمه.

– القيم والتقاليد، حيث تعد مرحلة الطفولة هى المرحلة المناسبة إن لم تكن الوحيدة لإكساب القيم والتقاليد المرغوبة، وهى فى الغالب الأعم نابعة من عقيدة المجتمع، وتوجهات أفراده والاتفاقات التى تم تقعيدها عبر الزمن، والتى ستدور حول الأمانة والصدق والتعاون وتحمل المسئولية والانتماء والعمل، وما يقابلها من ذم الخيانة والكذب والاتكال والكسل، وكذلك الأمر فى تقاليد المجتمع تبعا للبيئة وطبيعتها ونمط الثقافة السائد.

– نواتج التعلم، وهى النتاجات المتوقع أن يكتسبها المتلقى بعد أن يمر بالخبرة من تلقيه للنوع الأدبى، سواء عبر القراءة أو المشاهدة أو الاستماع، وهذه النواتج هى التى تكوّن الاتجاهات والميول والقيم فى أنفس الأطفال، ومن ثم تأتى ضرورة أن يكون المبدع على وعى شديد بما يكتبه للأطفال من أدب وما سيتركه فى أنفسهم من توجهات، فقد يحدث أن يهتم كاتب الأطفال بالتشويق فينتج عنه ما ينمى اتجاها سلبيا، تماما مثلما يحدث مع بعض أفلام الرسوم المتحركة الآن التى تهتم بالتشويق والحركة ولكنها تكرس فى أنفس الأطفال للحيلة والخداع والجريمة وغيرها.

فى الأدب العربى بدأ الاهتمام بتبسيط الأعمال الأدبية للأطفال متأخرا نسبيا، حيث تنبه كامل كيلانى إلى أهمية تبسيط أدب الكبار فقام بتبسيط حكايات ألف ليلة وليلة

ثم تأتى بعد ذلك الأسس الفنية الخاصة بكل نوع أدبى على حدة، مثل الأسس الخاصة بالشعر واعتماده على المجاز والاستعارة والانحراف اللغوى والتهشيم فى البناء الزمنى، فى مقابل السرد المعتمد على التراتب الزمنى والوصف والحوار والحبكة الدرامية على نسق ما، ولكن أيضا بمواصفات تتناسب والمراحل العمرية والسمات العامة للتشكيل الثقافى فى كل مرحلة، كما سيلى:

ثانيا علاقة هذا الأدب بالمراحل العمرية للطفل:

حيث يتطور خيال الطفل وإدراكه للحياة من حوله من مرحلة عمرية إلى أخرى، وإن كانت هناك سمات عامة يمكن رصدها فى هذا التطور، إلا أن البيئة والمجتمع المحيط له أثره فى تحديد ملامح تطور هذا الخيال، ومن خلال الدراسات الأدبية والنفسية التى اهتمت بالطفل أمكن تحديد أربعة مراحل لكل منها سماتها النفسية التى تتحكم فى وعيه للأدب والحياة عموما، وهى:

١ – المرحلة الأولى: عالم محدود وخيال حاد:

وتشمل السنوات من الثالثة إلى الخامسة من عمر الطفل أو الطفلة، وفيها يتميز الطفل بعالم

محدود من حيث معرفته ومخزونه عن المدركات والأشياء المحيطة به، فهو يعرف الباب والشباك وبعض الأفراد، وبعض أنواع الأطعمة، ويميز بين الحلو والمر، والساخن والبارد، ولكنه فى نهاية الأمر فهو محدود المعرفة، كثير السؤال عن كل مفردة جديدة تطرح أمامه، إلا أنه على مستوى الخيال فهو يمتلك خيالا حادا يسمح له بالتفكير فى حلول لمشكلاته تتميز بعدم خضوعها التام للواقع، مثل تفكيره فى ركوب العصا الطائرة، وفى تسخير الطيور والحيوانات لصالحه، ولصالح حل مشكلاته، فيخاطب الدمى والألعاب على أنها بشر، ويكافئها، ويعاقبها، ويتودد إليها، ويزجرها، ويسعى بعضهم إلى احتضان ألعابهم فى أثناء النوم وهكذا.

٢- المرحلة الثانية: الاكتشاف والتعرف:

وتشمل السنوات من السادسة إلى التاسعة، وفيها تبدأ شخصية الطفل فى التكون، حيث يستطيع الانتقال من مكان إلى مكان آخر قريب بمفرده، كما يستطيع الاعتماد على نفسه فى ارتداء ملابسه، وفى التعبير عن احتياجاته، إضافة للنمو الواضح فى معجمه اللغوى، وبالتالى قدرته على استيعاب المعانى المجردة. ويعد أهم ما يميز الأطفال على اختلاف أنواعهم فى هذه المرحلة العمرية هو حب الاستطلاع الشديد والزائد عن حده، فهو لا يريد أن يتلقى إجابات حول ما يسأل عنه، ولكنه يريد أن يمارس الحياة بنفسه، فيرغب فى ركوب الحيوانات، وفى تشغيل الأجهزة المنزلية، وفى القيام بالأدوار بنفسه.

٣- المرحلة الثالثة: التمرد والتفرد:

وتشمل السنوات من التاسعة إلى الثانية عشرة، وفيها يستقل الطفل والطفلة عن الاستعانة بالكبار فى تحقيق حاجاته البسيطة، كما يتضخم الشعور بذاته وبنوعه، مما يجعله بشكل عام يميل إلى التمرد والتفرد، ويرغب فى البطولة، ويتخذها حلما وملجأ وقدوة يسعى إليها، وينفرد الصبى فى هذه المرحلة العمرية بالميل إلى المغامرة والمخاطرة، ويسعى لتطبيق ذلك عمليا، بالمشاركة فى الرحلات، والخروج مع الأصدقاء بعيدا عن الأهل، كما يميل إلى قراءة قصص المغامرات والحروب وقصص الرحالة والمستكشفين، ويبدأ فى الولع بالقصص البوليسية، وما فيها من مغامرة وتحد وإشباع رغبات الشجاعة والعدالة والذكاء، وتنفرد الصبية بملامح وسمات تدور جميعها حول واقع حياتها كأنثى، فتتفاعل مع القصص التى تكون المرأة فيها هى المحور، وهى المحركة للأحداث، كما تبدأ فى هذه المرحلة عناية الفتاة بنفسها وملابسها اوزينتها، مما يمنحها تفردا يختلف بها عن عالم الأولاد ورغباتهم فى الخروج على المألوف.

٤- المرحلة الرابعة: البحث عن المثال:

وتشمل السنوات من الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة، وهى مرحلة الاستقرار العاطفى النسبى، وهى مرحلة دقيقة وحساسة، فتكون رغبة التظاهر بالرجولة والفتوة لدى الطفل فى أوجها، كما تكون رغبة التظاهر بكمال الأنوثة لدى الطفلة فى ذروتها.

وهنا يميل الطفل إلى القصص التى تمتزج فيها المغامرة بالعاطفة، وتقل فيها الواقعية وتزيد فيها المثالية، فالشخصيات الرومانتيكية ستكون

جذابة على الدوام، وخاصة تلك التى تواجه الصعاب الكبيرة والعوائق المعقدة من أجل الوصول إلى حقيقة من الحقائق، أو الدفاع عن قضية، ويتشوقون إلى القصص البوليسية والجاسوسية وكذلك موضوعات الحب.

ثالثا - جماليات الأداء المتعلقة بأدب الأطفال على اختلاف أجناسه:

حيث يمكن هنا دراسة جماليات النص على مستوى البناء، والحبكة، والاتساق، وتنمية مهارات التفكير، والتأثير فى الوعى، وأخيرا جماليات التلقى تبعا للذائقة السائدة فى الثقافة العربية بعامة وعلاقتها بالاتجاهات العالمية فى هذا الصدد، وتنوع مناهج ومداخل قراءة النص بين المرسل والنص والمستقبل.

فمثلا يمكن دراسة علاقة المتلقى بالنص انطلاقا من كون الأدب رؤية جمالية للعالم، وبنية يقوم المتلقى بإعادة إنتاجها فى إطار المنتج الثقافى العام للمجتمع، وانطلاقا من كون التلقى ظاهرة تواصلية، ومرورا بسيموطيقا التلقى وسوسيولوجيا القراءة، وانتهاء بنقد استجابة القارئ.

رابعا - التبسيط:

قبل القرن التاسع عشر لم يكن هناك اهتمام بالكتابة للأطفال بعامة لا فى الغرب ولا فى الشرق، ولكن مع نهايات هذا القرن بدأت حركة من الانفجار العلمى، وتطور البحث فى أنواع العلوم كافة، وبخاصة أبحاث علم النفس، وفى مراحل الطفولة وتحديد السمات النفسية للأطفال، وأبحاث التربية وعلومها، وأبحاث العلوم الإنسانية

يجب أن تكون الصورة فى أدب الأطفال قريبة المأخذ، سهلة التواصل معها، لا تحتمل تأويلات، وإنما تصل مباشرة إلى الهدف المطلوب.

وتنمية مهارات الإنسان، وتزايد الاهتمام بالمعرفة عالميا، وهنا تنبهت شعوب العالم لأهمية تقديم الأدب للأطفال، ونظرا لأنه لم يكن هناك تأليف موجه إلى الأطفال على نحو خاص، فقد كان الطريق الأسهل هو العودة إلى الوراء للبحث فى التراث العالمى عن قصص وكتب تناسب الأطفال، أو يستطيعون أن يتواصلوا معها مسموعة أو مقروءة، غير أن الكتب من هذه النوعية قليلة، وهى فى نهاية الأمر لا يمكن تقديمها للأطفال مباشرة دون المرور بعمليات من التهذيب والفحص والتدقيق لصالح القيم والتقاليد العامة، وخوفا على الصغار من الأفكار التى يمكن أن تؤثر عليهم بالسلب، وهنا ظهرت أشكال عدة من هذه التدخلات، كان على رأسها التبسيط.

والمعنى به هو تبسيط الأعمال الأدبية الموجهة للكبار فى صورة تتناسب مع أفهام الصغار، وبالطبع لم يكن هناك تحديد دقيق للمراحل العمرية، بل كان هناك تقسيم للأدب إلى فئتين فقط، أدب للكبار، وأدب للصغار، دون تمييز بين احتياجات الصغار أو خصائصهم فى مرحلة دون الأخرى.

وفى مجال تبسيط الكتب للصغار اشتهرت

أسماء بعينها، منها فى الغرب: جون نيوبرى البريطانى الذى قام بتبسيط أعمال الأدب الأوروبى بعامة، ومنها مثلا روبنسون كرزو للمؤلف دانيال ديفو التى صدرت عام ١٧١٦م، ورحلات جاليفر للمؤلف جوناثان سويفت الصادرة عام ١٧٢٦م، وحكايات أمى الأوزة للمؤلف الفرنسى تشارلز بيرون، ثم قام تشارلز ومارى لامب بتبسيط نماذج من مسرحيات شكسبير للأطفل تحت عنوان From Shakepeare Tales عام ١٨٠٧م، وتوالت المحاولات فى الأدب الغربى وعلى نحو متطور فلم تترك نموذجا أدبيا رفيعا من القديم أو الحديث، ومن الشرق أو الغرب إلا وقامت بتبسيطه، فأخذت من الأدب العربى مثلا حكايات ألف ليلة وليلة، وحكايات كليلة ودمنة تحت عنوان خرافات الحيوان أو الفابليات كما أطلق عليها لافونتين، وقصص الشاطر حسن، وعلاء الدين، والسندباد، وغيرها كثير.

أما فى الأدب العربى فقد بدأ الاهتمام بتبسيط الأعمال الأدبية للأطفال متأخرا نسبيا، حيث تنبه كامل كيلانى (١٨٧٩ - ١٩٥٩)، إلى أهمية تبسيط أدب الكبار فقام بتبسيط حكايات ألف ليلة وليلة وقدمها للأطفال بأسلوب سهل يلائم مراحلهم العمرية، كما أنه اهتم بتقديم قصص وحكايات من جميع أنحاء العالم فى صورة مبسطة، ومنها: قصص جاليفر، وروبنسون كروزو، وقصص من الهند، وأخرى من الصين، وغيرها من الغرب.

واليوم يحتل التبسيط فى أدب الأطفال مساحة غير قليلة من المنجز النصى، وعلى الرغم من اعتماده فى القاسم الأكبر منه حتى الآن فى مجتمعاتنا العربية على المنتج الغربى، إلا أنه يمثل جانبا مهما من جوانب تثقيف الأطفال عبر وسيط الأدب، وتكاد الدراسات التى تهتم بإجراءات التبسيط أن تكون نادرة، وفى هذا الصدد يمكن تحديد الملامح الغامة للتبسيط والتى ستمثل الإطار النقدى الحاكم والحاسم لهذه العمليات، ومنها:

إجراءات التبسيط:

أولا - تحديد المرحلة العمرية المراد التبسيط لها.

إذ لكل مرحلة مما سبق سماتها النفسية ومتطلباتها فى العمل المبسط، واحتياجاتها التى تستثير الدافعية لدى أفرادها، وتجذبهم إلى القراءة، وتعمل على تحقيق أهداف تعلم إيجابية لديهم، بل تتحكم هذه السمات فى الحكم على العمل ما إذا كان قابلا للتبسيط مناسبا لهذه المرحلة بعد تبسيطه أم لا.

ثانيا - تحديد المعجم اللغوى المتناسب مع المبسط لهم:

حيث يمثل الوعى بمعجم الطفل والمفردات اللغوية المتناسبة معه، والإمكانات التى يمكن أن يستوعبها معجمه من إضافة مفردات وتراكيب وأساليب جديدة، كل ذلك يمثل عاملاً أساسيا فى عملية التبسيط، وفى إمكانيات تلقى العمل والتفاعل معه على نحو إيجابى.

ثالثاً - تحديد الملامح العامة لثقافة المرحلة المبسط لها.

تشمل الثقافة فيما تشمل الأفكار والعادات والتقاليد والقيم والمعتقدات والسلوكيات ومفاهيم الإنتاج بعامة، ومن المهم عند تبسيط الأعمال

الإبداعية للأطفال مراعاة هذه العناصر التى تكوّن فى مجملها ثقافتهم، وهو ما يستلزم تحديد الفكرة العامة التى يدور حولها العمل الأدبى، واختبار مدى مناسبتها للمرحلة العمرية المراد تبسيطها إليهم، ومن المعروف أن «الفكرة فى أدب الكبار إما أن تكون مناسبة للأطفال تماماً أو مناسبة مع بعد التحفظات أو غير مناسبة على الإطلاق، فإذا كانت غير مناسبة فإنها تستبعد من أن تقدم للأطفال مبسطة، وإذا كانت الفكرة مناسبة فعلى الكاتب أن يقوم بتبسيطها للأطفال بواسطة إلغاء بعض الجزئيات التى تكون الفكرة، أما إذا كان إلغاء هذه الجزئيات سيشوه الفكرة، فالكتاب غير مناسب للتبسيط».

غير أنه هناك محك أساسى فى تبسيط الأدب يتعلق بالثقافة، وهو أمانة التبسيط مع الأفكار الواردة فى العمل الأصلى، وإلا تحول مسار العمل وخرج من إطار التبسيط إلى إطار العمل الجديد، وهناك دوما أنماط ثلاثة من الأفكار هى التى يمكن التحرك فى تغييرها، وهى الأفكار المتعلقة بالجنس أو الدين أو السياسة، إذ من المعروف أن الأدب يسعى دوما لكسر الحدود، وأن الأديب يمتلك حرية فى التعبير ناتجة عن وعيه الثقافى ودوره الفاعل فى المجتمع، وهو ما يجعله أكثر جرأة من غيره على مناقشة القضايا الدينية والسياسية والكشف عن مخبوء النفس البشرية فى انحرافاتها وما تحمله من خروج.

مداخب التبسيط:

* الاختصار والتلخيص.
* الحذف.
* إعادة الصياغة.
* التخفيف ويكون على مستويين أولهما المستوى الأسلوبى، وثانيهما مستوى الأفكار.
* المعالجة والتعديل: ومنه تعديل المفاهيم والمواقف والاتجاهات السلبية....

تقويم الأعمال الإبداعية المبسطة:

تعد عملية التقويم جزءا من عمليات التبسيط، وهى ليست بالضرورة عملية نهائية يتم تقطبيقها بعد الانتهاء من التبسيط، وإنما هى عملية قبلية، ومصاحبة للتبسيط، وبعد الانتهاء منه، وهو ما يجعل التقويم على هذا الأساس عملية بنائية وليست عملية ختامية.

ولكى يكون التقويم سليما لابد من تحديد أهداف قبل البدء فى عمليات التبسيط ذاتها لتحدد المراد تماما من التبسيط، ولماذا يقوم المبسط به، وإلى أى مدى يمكن أن يعطى لنفسه حرية فى التصرف مع المادة الأصلية للعمل المراد تبسيطه، وكذلك تصميم أداة تقييم واحدة على الأقل يمكن استخدامها لقياس مدى سير عملية التبسيط فى مسارها الصحيح من عدمه.

وعلى الرغم من إمكانية تحقق المعايير السابقة فى عمل ما خضع للتبسيط إلا أنه تبقى دوما حرفية القائم بالتبسيط فى المحافظة على تماسك العمل وبنيته الدرامية، وبقدر اقتراب التبسيط من العمل الأصلى (لغة المؤلف وأسلوبه وحركة الأحداث) بقدر نجاح العمل المبسط وتحقيقه للتوقعات المرجوة منه فى إحداث تعلم على نحو ما، أو توصيل الرسالة كما تضمنها العمل الأصلى.

وأما حرفية التبسيط فإنها لا تتأتى فقط من

تكرار العملية وإنما يحكمها محكات رئيسة، منها:

أولا: الإلمام بالأسس الكلاسيكية للبناء الفنى للنوع الأدبى الذى ينتمى إليه العمل المراد تبسيطه، فعلى سبيل المثال يختلف تبسيط قصة عن تبسيط رواية عن تبسيط كتاب علمى أو كتاب فى التاريخ.

ثانيا: الحس الفنى بما يمكن الاستغناء عنه وما لا يمكن، فقد يكون الحدث هامشيا ولكنه أكثر تشويقا من أحداث أخرى فرعية داخل العمل الأدبى.

ثالثا: الإلمام بمراحل نمو الطفولة والسمات النفسية والعقلية والإمكانات اللغوية والمعرفية لكل مرحلة، للوقوف على ما يمكن أن يتلاءم معهم وما لا يمكن.

رابعاً: امتلاك المهارات اللغوية اللازمة التى تسمح بإمكانية التصرف فى اللغة على مستويات مختلفة وبشروط محددة بما لا يبتعد بالعمل المبسط عن العمل الأصلى، ويجعل العلاقة بينهما

الهوامش

(١) للاستزادة حول موضوع النمو اللغوى عند الطفل، وعلاقة اللغة بالتفكير والتذوق عند الأطفال يمكن العودة إلى الفصل الأول من كتابنا: أدب الأطفال بين التراث والمعلوماتية - الدار المصرية اللبنانية - ٢٠٠٩، ص١١ وما بعدها.

(٢) يمكن العودة إلى: محمد غنيمى هلال: النقد الأدبى - دار العودة - بيروت - ١٩٨٦.

- وانظر معالجتنا لموضوع الإيقاع فى الشعر العربى - قصيدة النثر وتحولات الشعرية العربية - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - ٢٠٠٣.

(٣) ينظر فى ذلك: د. محمد حسن عبد الله: قصص الأطفال ومسرحهم - دار قباء للطباعة والنشر - القاهرة - ٢٠٠٠. وللاستزادة حول المراحل العمرية والسمات العامة لمراحل نمو الأطفال، يمكن العودة إلى مراجع علم النفس التربوى العديدة، ومنها:

- فؤاد أبو حطب، وآمال صادق: علم النفس التربوى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٠.
- محمد البيلى، وعبد القادر العمادى، وأحمد الصمادى: علم النفس التربوى وتطبيقاته - مكتبة الفلاح - العين - ١٩٩٨.
- محمود عبد الحليم منسى، وسيد محمود الطواب: مدخل إلى علم النفس التربوى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ٢٠٠٢.

(٤) يمكن العودة فى ذلك إلى: محمود عباس عبد الواحد قراءة النص وجماليات التلقى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٩٦، وإلى: روبرت هولب: نظرية الاستقبال - ترجمة رعد عبد الجليل - دار الحوار - اللاذقية - سورية - ١٩٩٢.

(٥) أحمد نجيب: أدب الأطفال علم وفن - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٩٤ - ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٦) للاطلاع على أساليب وأدوات تقويم الأعمال الإبداعية المبسطة يمكن العودة إلى الفصل السابع من كتاب أدب الأطفال بين التراث والمعلوماتية - مرجع سابق.